



الصباح كانت لنا

فصل من رواية

- ستندم يوما ما يا عماره ود ادريس .

- لا وقت للندم ففدا تصير شندى فركة كعب .. ويفسل الصباح
طعم الاسف في كل صحاري العالم .

الطعنة القديمة في موضع القلب تماما والخمر كقيلة باحالة أقسى
الذكريات الى مهرجانات للتعجب يرقصون فيها حتى مطلع الفجر .
يوم ان قال له ود عباس في سوق آلمته تبدو وكأنك مقطوع من شجرة
عدد في لحظات الفضب الهائج المتدفق كل افراد القبيلة . والان ينكر
خلال الحوار الاخرس بينه وبين الصوت المجهول الذي يكاد ان يخترقه
انه على صلة بالقبيلة .. ديار آمنه حيث الظل البارد والمحسنة
الحقيقية . فرضت عليه المطاردة فعلا . مطاردة من القبيلة والحكومة
عطش حوله وفيه الى كل شيء . عطش للفرح الحقيقي حتى لو طارده
عساكر العالم كله .

في القرية الصغيرة التي تففو عند احد منحرجات النيل ومع
الرياح التي تحمل لقاح النخيل كانت آمنه حبلى في شهرها السابع .
الصديق .. هذا الفتى الاسمر النحيل الصارم القسما ملا كل
بيت بالفرح من اجل مولوده الاول . الفتيات هنا ليس لهن رأي .
انت تعلم ذلك يا عماره ود ادريس . آمنه التي رعت معك الفنم
وتقافزت معك على جروف النيل ونامت خصلاتها السمحة البريئة براءة
القمح على يديك .. ستلد مع الموسم طفلا الاول . الجرح يفتح
كالجسيم المجنون والتبع كما قال لك رفيق دربك حامد الذين باعوك
الفا قبل صلاة الصبح . وعندما تحرك الخمر كوامن الشجن القديم
تشيل الرياح في الخارج .. من صحراء الزمن المسكون بأودبة الجن
والهالك . وانت تعلمت ان الدنيا لا تؤخذ الا قسرا . وها هي المطاردة
تبلغ ذروتها . لك الجمال الاصيله وموعندك وضروب مع الجيوب المتخمة
المنعورة ولهم الحسرة وشح الموسم .

فوق جملة البشاري الاصيل ملا عماره ود ادريس رثيه طويلا من
هواء الوادي قبل ان ينطلق نحو حدود المديرية . وما أن انطلق الجميل
البشاري حتى بدأ حامد رفيق السفر والخطر يترنم بدوبيت عذب .

الصيف والذكريات . شمس اغسطس تقلي العجسة . بعيدة
شندى (١) ولكنها هنا في الوجدان والقلب الذي عرف الخيانة وذاق
طعنة الظهر . بعيدة شندى يا عماره ود ادريس ولكنها اقرب اليك
من جبل الوريد . غدا تتحدث البنديقية تبصمت كل شيء .. ومنذ
متى كان احد ما يستطع لوي عنق البنديقية عندما تبدأ اتحدث.
الصيف والذكريات . الدنيا تؤخذ عنوة . من الذي ينتظر قيراطين من
الارض يعملها الموسم بالفاصوليا ؟ حياة خير منها الموت . الجيوب
المتخمة التي تنحدر مع الرياح المتلاطمة . لتتحدث البنديقية والحشاش
يملا شبكته . بالامس حكموا عليك يا عماره ود ادريس بالاعدام والبراءة
وقد جاء الوقت لتبصمهم الفا قبل صلاة الصبح .. ترى يا عماره ود
ادريس هل تفرح اللمعة الساخنة اجفان آمنه بنت الخال الحارقة
صباية وشهوة في بهيم الليل هذا . في صحوة الزمن المتشابك حكم
عليك ابوها بالاعدام والبراءة ..

- ما بزوج آمنه لحرامي .. قاطع طريق .

اصبحت حنق أنفك القاتل والقتيل في آن واحد . باعوك مرة
فلتبعهم الف مرة قبل ان تظهر صحاري الزمن القادم وقبل ان تشرب
مغوية اتقلق والتوتر بخداق الفرقة والشجن القديم . عماره ود
ادريس حرامي . قاطع طريق . من ذا الذي يعرف مثلك ان الاسد
اذا فرط في عرينه تبولت عليه الثعالب الخائفة المنعورة . ولكن
ما لهذا الصوت يكاد يخترقك ويتبعك أينما ذهبت كظل الشتاء .

- ألم يحن وقت العودة يا عماره ؟

- العودة الى اين ؟

- الى القبيلة . الظل البارد والمحنة الحقيقية .

- تقصد الى الذين باعوا عماره ود ادريس أرخص من موسم
القول والفاصوليا ..

- أقصد العودة الى ديار آمنه .

آمنه وهج العين الذي يفسل في لحظات الاستشراق كل ندم
العالم .

- اذن .

- لم يعد في اتقلب حنين للعودة فنحن نماشر اليوم الخوف
والخطر لاحتلال السعادة الحقيقية في القلب الذي ذاق الخيانة وحصرم
الفسد ..

كل شيء معد وبداية الموسم تيشر بالخير ولنا الف موعد مع الجيوب المتخمة وستة اشهر من الدم والرماد .

في الطريق نحو حدود المديرية تختمر وتضطرب في النفس مشاعر شتى . طرفا التناقض حيال الحقيقة والندم وثرثرة النيل عند منعرجات السير الطويل . تابوت النفس يا عماره ود ادريس يشير في الاتجاه المضاد للتمني والهلاك . آخرون قمره وانت قدر آخري . لا هم يعرفون طريقا للخلاص ولا انت . اذن فلنستمر المطاردة . انت تعامل مع عالم باكملة يؤمن بان الدنيا لا تؤخذ الا قسرا . حامد رفيفق السفر والخطر . . ود ابراهيم الكامن على حدود المديرية في انتظار الجمال الاصيل التي ستطردا امامك . وهو لا يستطيع ان يخسك الشن لانه يعلم انك دفعت لقاءها ثمنا غاليا . . الموت المفاجيء . . الفدر وسهر الليالي الطوال . . الاستقرار في المطاردة المستمرة . الصداقة التي بينكما صداقة مطاردين وهي دائما تكون وثيقة العرى متلفة بالتونب والهجرة دوما لصحاري المستحيل .

ذلك الصباح كانت القرية الغافية عند احد منعرجات النيسل العديدة التي تقذي سيره الطويل تستعد لشيء لا تدرك ابعاده تماما . كيف سيبدأ . . كيف سينتهي . . الليلة التي سبقت ذلك الصباح سدت المنافذ امام عمم الفقل . قال الصادق وجمع كبير من اهل القرية في منزل خاله شيخ عثمان . .

- لا يمكن ان نظل مكتفين ايدينا هكذا ؟
- ماذا نفعل يا الصادق يا ود اخوي ؟
- نفعل اي شيء يوقف هذه الهزلة .
- تقصد نحارب الحكومة وعساكره .
- نحارب العمدة قبل كل شيء .
- تحدثنا مع العمدة حتى كادت ارواحنا ان تفيض دون فائدة .
- عيب يا رجال . . عيب .

اثار الصادق هذا الفتى النحيل الاسمر - الذي كان والسده حاج الامين قد ارسله الى الخرطوم واقتطع له من لحمه وضوء عينيه ليكمل تعليمه الاوسط - رجال انقريه مستنقزا غضبهم الصامت ليحولهم الى فعل ونقل ثورتهم المكبوتة الى ميدان الاداء حيث يعاد لهم حقهم البائن . مئات الافدنة من الارض الخصبة التي يمد لها النيل الودود لسانا طويلا ترتوي منه زمن « الدميره » (١) وعندما ينحسر عنها يظل ايضا ودودا وفيها لها يريد العمدة تحويلها الى ملكيته الخاصة بحجة انه يملك وثائق قديمة تثبت ملكية اهله لهذه الارض . والصادق يعلم ان هذه اول تجربة من نوعها يدخلها اهل القرية . الظلم ظل يتم على دفعات صغيرة ولكنه يتم هذه المرة على رقعة واسعة من الارض ولا بد ان تستخدم خلاله ادوات جديدة . والصادق ظل يحس الظلم منذ ان ولد في هذه القرية . الجرعات كانت باستمرار صغيرة لكنها قاتلة . اما هذه المرة فالحديث غير عادي بدليل الحيرة المرتسمة على عشرات الالوج الطيبة الصارمة والتي ميلادها ميلاد هذه الجروف التي تفضب احيانا فكانها تتامر مع بقية عوامل الطبيعة فيشح الموسم ولكن الرجال يصيرون على شح الارض ويبرونه ويزدادون حبا لها . . وذلك الصباح كانت القرية تستعد لشيء واحد لا يستطيع كائن من كان التنبؤ ببدائته او نهايته .

وصورة القرية من قريب لا تختلف عند أي قرية سودانية . مئات البيوت الطينية المسقوفة بالحطب وسعف النخيل . الزابل والرض والحيوانات كلها تنمو فوق ارض خضراء خصبة تفيض بالخيسرات الموسمية . رائحة الطعام في البيوت لا تتغير منذ الف جيل . حياة صغيرة محدودة فوق رقعة محدودة من الارض لكنها مليئة بالرضا . فالقناعة كنز لا يفنى . هكذا تعلموا وآمنوا بما تعلموه من الاجداد والزمن . هذه الاشياء المحدودة كانت تفجؤها احيانا بعض العوامل التي اصبحت نفسها مكررة لتكرار الصورة التي تحدث بها . موت انسان عزيز او عرس او جلد احد ابناء القرية في مركز البوليس . ورغم تراجيدية الجلد فقد كانت على انها نوع من النسيب الذي لا بد ان يتم تحمله بشجاعة . والتمرد لم يكن سوى حالات فردية بحتة ومكتومة في نفس الوقت . واهل القرية يزرعون ويحفظون ويفنون . . وفي الليالي يسردون الحكايات الطويلة ودائما تتمم شفاهم بذكر الله . والصادق وسط كل هذا يبحث عن لحظة انفجار واعية لكسى لا يموت كل شيء داخل شرنقة العذاب والصبر . وهو في بحثه بهارة شديدة عن هذه اللحظة الواعية يضع في ذهنه كل احتمالات الكوارث القادمة . والصادق يدرك في نفس الوقت صعوبة البحث عن هذه اللحظة وسط الذين دوختهم جرعات الظلم الصغيرة عبر عشرات السنين ولكن لا بد من ايجادها فهي المخرج الوحيد من ظلال هذه الماساة . ليسوا غير مبالين ولكنهم لأول مرة في تاريخ قريتهم الراكد يواجهون مثل هذا الحدث الكبير المفجع .

. . وبدأ ذلك الصباح متميزا وفاجعا في نفس الوقت . تناقلت بيوت القرية المعركة المروعة التي كانت قد دارت بين عمارة ود ادريس وعساكر الحكومة . كل تناقل المعركة من خلال منطلقه الخاص تجاه عماره ود ادريس ابن القرية الذي كسر اول حلقة في سلسلة الخوف الزمن من السلطة الممثلة في عساكر الحكومة وعلى رأسهم المفتش الانجليزي .

نقل التوم اخبار المعركة الى القرية . قال ان مجموعة من الاعراب نقلت اليه الانباء . والتوم شخصية اكتسبت محبة جمع اهل القرية فالكلمة يعتقد انه صالح او ولى من اولياء الله رغم قبح وجهه وتصرفاته التي تشبه تصرفات الاطفال دوما رغم انه قد تعدى الخامسة والعشرين كما يقسم شيخ الامين باغظ الايمان . ولفترة سيطرت انباء المعركة بين عماره ود ادريس وعساكر الحكومة كما رواها التوم على كل بيوت القرية ومجالسها .

- والله ود ادريس راجل مفكر .
- ليه ؟
- زول واحد يحارب الحكومة براهو .
- يحارب . . قال يحارب . . ده حرامي . . قاطع طريق .
- عماره يطير خلونا في مشكلتنا .

وفي بيت من بيوت القرية تمت امرأة حيلي ان يهبها الله ولدا في شجاعة عماره ود ادريس وتمنت لو تستطيع خرق حجاب الزمن فتخاطب عماره ود ادريس غب اصائل القرية ليبارك ما في رحمها على صهوة الاقدام والمغامرة . وعند الظهرية تجمع رجال القرية في حوش شيخ عثمان للتفاكر . كانوا يبحثون دون وعي عند التماسك . . هذا الاكسيري السحري الذي لا بد منه في وجه الظلم كما قال لهمم الصادق . العمدة وعساكر الحكومة والمفتش الانجليزي عبادة سوداء تغطي وجه القرية . قال شيخ عثمان انه التقى بالعمدة في الفجر فسأله العمدة عن سر التمر والثورة . اشرابت اعناق الرجال .

- ماذا قلت له ؟

قال الصادق متوتبا .

- وضحت ليهو الموضوع .
- يجب ان يعلم ان حفنا هو حفنا .
- ولكنه سيلجا لعاكر الحكومة .
- دعه يلجا للشيطان حتى .
- الا يمكن ان نحدثه باللين .
- حدثناه حتى تشفتت السنننا .
- الله معنا .
- نعم بالله ولكننا يجب ان نكون مع انفسنا .
- كيف ؟
- ندافع عن حفنا حتى الموت .
- نعم يجب ان لا نخاف .
- نخاف حكومة يدوخها عماره ود ادريس بمفرده .
- ولكنه حرامي وقاطع طريق .
- لا تنسوا انه من صلبنا .
- دعونا من سيرة عماره ما راكهم في مقابلة العمدة ؟
- لا بد ان نتيج له الفرصة الاخيرة .
- يذهب ثلاثة منا .. شيخ عثمان وشيخ الامين والصادق .

شالت الريح في الخارج . امتدت يد عماره ود ادريس تلتقط كأس الخمر . نفس الطعنة في موضع القلب . الروح الماشقة للحرية والمطاردة غب الامسيات الخانة في القرية حيث شح الواسم وتواشيع التنب الذليل تتوتب ابدا بحثا عن الجذور في الارض والوطن . اغفي عمارة قليلا ثم انتفض كاللنوغ . في ظلمة النفس وفي لحظة بيسن الهذيان والصحو تدفق سيل من الاوجه الطيبة السمحة .. آمنه ثم امه . آمنه كأنها غريق يناديه في لجة من الظلام . بحركة آلية قبض على بندقيته سريعة الطلقات . اختلط الوهي بالجنون والريح ما زالت تشيل في الخارج .

- امنيتي يا عماره ان تعود الى اهلك .
- لاحني ظهري طوال العام من اجل قيراطين من الارض .
- حياة شريفة بين اهلك
- وحياتي الان اليست شريفة ؟
- ولكنها مخنوقة يا عماره .
- سافك عنها ما يخنقها يا سعدية .
- الى متى هذا العناد وقوة الرأس .
- الى ان تظهر كل صحاري العالم بالندى والحب .

سعدية قربة لا تشعر بالقهر مطلقا ولا تشعر بالسكنة ولكنها تخاف الفقد ومرارة الفقد التي قد تطيح بما تبقى للنفس من تماسك . الدنيا لا تؤخذ الا عنوة يا عماره ود ادريس . الصيف والذكريات . الريح تشيل في الخارج .

- سنتحرك في الفجر يا سعدية .
- اريد ان اقول اشياء أخرى ولكن ...
- قولي على بركة الله يا سعدية .
- ولكن متى العودة ؟
- حال ان ننتهي .
- وهل يطول ذلك .
- كن يطول يا سعدية .

محمود محمد مدني

الخرطوم

- (X) مدينة في اواسط السودان .
- (X) موسم منعا ارتفاع منسوب النيل .

✱ ✱ ✱

في بيت من البيوت القائمة في اسفل الوادي الذي يبعد كثيرا عن القرية حيث تعيش مجموعات الاعراب على رعي الجمال والغنم والغنم دفع عماره ود ادريس كأس الخمر الذي كان امامه بحركة عصبية جامحة الى جوفه وهو يتأمل صفاء وجه سعدية وهي تنظف الجرح الذي كان قد اصيب به في معركة الامس . سعدية هذه المرأة الانقى من نسيمات الصيف يعلم جيدا كم تتعذب من اجله . الريح تشيل في الخارج ، كل شيء اصبح له طعم الجنون . عساكر الحكومة . يطلبون دمك الذي استباحوه يا عماره ود ادريس . وماذا يفعل الاهل في القرية .. تنهب اراضيهم ويحكون في الاماسي القصص الطويلة . وهم الذين حكموا عليك بالاعدام والبراءة . لماذا لا ينقبون في الارض وتاريخ الوطن . كل شيء اصبح له طعم الجنون . من جديد عادت الخمر لتحيل أقسى الذكريات الى مهرجانات للحصاد .

- سعدية قيم تفكرين ؟
- خائفة عليك يا عماره .
- لا تخافي غدا بصير كل شيء في يدينا .
- قلبي لا يحدثني خيرا .
- اذن حديثه انت بالخير .

سعدية .. هذه المرأة التي تحدثت من اجله حتى الموت المفاجيء يعلم بيدائية الغامر الذي باع العمر للريح التي تشيل في الخارج المشاعر المضطربة التي تحملها له هو الهائم تحت سماءات مجهولة حاملا الاكفان يصلي للطمأنينة التي سقطت وفي اثره القانون وعساكر الحكومة وفوق ظهره اللعنات الجبانة .. وهو يقتدي نفسه ومئات الناس في عمر القوضى والخوف من اجتياز بحور الطمانينة النهائية .